

الطابق الثالث عشر

حمادة حامد محمود نور الدين

في الليلة التي ماتت فيها أمّي، صعدتُ إلى شقّتي في عمارة شارع الفجالة، فوجدتُ في المصعد زرًّا جديدًا.

كنتُ أسكن في الطابق الثاني عشر منذ ثلاثين سنة، وأعرف أزرار هذا المصعد النحاسي كما أعرف أصابعي: من الأرضي إلى الثاني عشر، ثم الزرّ الأخير الذي كُتب عليه «السطح». لكنّني حين ضغطتُ على رقم اثنَي عشر، لاحظتُ بين الثاني عشر والسطح زرًّا لم يكن هناك أمس. زرٌّ صغير باهت الضوء، عليه رقمان بخطٍّ قديم: ١٣.

العمارة لا طابق ثالث عشر فيها. حفظتُ هذا لأنّ أمّي كانت تقول دائمًا: «الحمد لله أنّ المقاول كان متشائمًا وتجاوز الرقم المشؤوم». ضحكتُ حينها. أمّا الليلة فلم أضحك.

وقفتُ ثوانيَ طويلة أمام الزرّ. كانت يدي ترتجف، وفي جيبي ورقةُ الوفاة التي لم أجد وقتًا لقراءتها. قلتُ لنفسي: عاملُ صيانةٍ ركّب زرًّا خطأً. ثم رأيتُ الزرّ يتوهّج وحده، من غير أن ألمسه، وسمعتُ المصعد يتحرّك إلى الأعلى. تجاوز الثاني عشر. لم يتوقّف. وكان صوتُ الحبال فوق رأسي يشبه همسَ إنسانٍ يتكلّم من خلف جدار.

انفتح الباب على ممرٍّ ضيّق تفوح منه رائحةُ خبزٍ ساخن وعطرٍ أعرفه. عطرُ أمّي. ذلك الذي كانت تخبّئ قارورته الفارغة في درج الكوميدينو لأنّها لا تحتمل التخلّي عنها.

خرجتُ. لا أعرف لماذا. ربّما لأنّ الحزن يجعل المرء أشجعَ من اللازم.

كان الممرّ طويلًا أكثر ممّا يحتمله مبنًى من اثني عشر طابقًا، وعلى كلّ جانب أبوابٌ خشبية قديمة، على كلّ باب رقمٌ لا معنى له: ٣٩٨٨، ٤١٠٢، ٧٠. وفي آخر الممرّ طاولةٌ صغيرة، يجلس خلفها رجلٌ ضئيل في جلبابٍ رماديّ، أمامه دفتر ضخم وقلم من الحبر الأسود.

رفع رأسه من غير دهشة وقال: «تأخّرتَ يا أستاذ سامي. الطابق يُغلق عند الفجر».

«كيف تعرف اسمي؟»

«أعرف أسماء كلّ من يركب هذا المصعد وهو يحمل شيئًا لم يقله». ابتسم ابتسامةً مهذّبة متعبة. «نحن لسنا شيئًا مخيفًا. نحن مكتبُ

الكلمات المؤجَّلة. كلُّ إنسانٍ يترك وراءه جملةً واحدة لم تُقَل. ونحن نحفظها له، حتى يجد وقتًا يقولها فيه».

قلتُ بصوتٍ مبحوح: «وأنا ما الجملة التي لم أقلها؟»

قلّب الدفتر. توقّف عند صفحة، وقرأ بلا تعبير: «لم تقل لأمّك: سامحيني على ما حدث في الصيف الذي سافرتَ فيه».

شعرتُ كأنّ أحدهم أفرغ ماءً باردًا على ظهري.

نعم. الصيف. قبل اثنتي عشرة سنة، حين قرّرتُ السفر إلى الخليج وتركتُ أمّي وحدها بعد وفاة أبي. قلتُ لها حينها كلمةً قاسية في آخر مكالمة، عن «الواجب» و«الحياة التي لا تنتظر أحدًا». ثم عدتُ، وصرتُ أزورها كلّ جمعة، وأحضر لها الدواء، وأصلح الصنابير. لكنّنا لم نذكر ذلك الصيف أبدًا. كأنّنا اتّفقنا بالصمت.

«لقد ماتت»، قلتُ. «ماتت اليوم. هل فات الأوان؟»

هزّ الرجل رأسه، وقال جملةً لم أفهمها وقتها: «الأمر ليس بيدي. الأمر بيد الباب».

أشار بقلمه إلى باب في وسط الممرّ. باب خشبيّ أخضر، عليه رقمٌ واضح هذه المرّة: ١٢. رقم شقّتي. رقم الطابق الذي أعيش فيه.

«هذا بابٌ يؤدّي إلى حيث تنتظر الجملةُ مَن يسمعها. ادخل. لديك دقائق فقط، وبعد أن تدخل لا تقدر على سؤالي شيئًا. وهناك شرطٌ واحد».

«ما هو؟»

«لا تفتح عينيك قبل أن تنتهي».

وأثناء ما كنتُ أنتظر، سمعتُ من وراء الباب المكتوب عليه الرقم ٧٠ بكاءً مكتومًا، بكاءَ رجلٍ كبير يحاول ألّا يُسمَع. التفتُّ إلى صاحب الدفتر، فقال دون أن يرفع عينيه: «ذلك فتحَ عينيه قبل أن ينتهي. الشرط شرطٌ يا أستاذ سامي. ظنّ أنّه يستطيع أن يرى وجه من أحبّ ثم يتكلّم. فعاد الباب بيننا وبينه جدارًا. جملتُه لا تزال في الدفتر، وسيظلّ يأتي كلّ ليلة، ويقف خلف الباب، ولا يُفتح له».

ارتجفتُ. «وماذا يحدث لمن يفتح عينيه؟»

«يعيش بقيّة عمره وهو يعرف أنّه كان على بعد رمشةٍ من الغفران». ثم نظر إليّ أخيرًا، ورأيتُ في عينيه حزنًا أقدمَ من العمارة نفسها. «فلا تفعل».

وقبل أن أسأل أكثر، دقّت ساعةٌ في مكانٍ ما دقّةً واحدة، فنهض الرجل وقال بصوتٍ هادئ حازم: «الفجر يقترب. هذا بابُك».

أخذتُ نفَسًا طويلًا. مددتُ يدي إلى المقبض، فشعرتُ بدفءٍ غريب يشبه دفءَ كفٍّ تمسك يدي. فتحتُ الباب. دخلتُ، وأغمضتُ عينيّ كما أمرني.

وبعد أن أُغلق الباب خلفي بلحظة، سمعتُ شيئًا جعل قلبي يتوقّف: خطواتٍ تقترب من الخلف، وهمسةً تقول اسمي بصوتٍ ليس صوت أمّي. صوتٌ يشبه صوتي أنا، لكنّه أكبر سنًّا وأكثر مرارة: «افتح عينيك يا سامي. انظر. لن يحدث شيء. هي ليست هنا، هذا خداع». ثبّتُّ جفنيّ بقوّةٍ حتى آلمتني عيناي. عرفتُ أنّها آخر امتحانٍ في الطابق: أن يختبرك صوتُ ما كنتَ ستصير عليه لو لم تغفر لنفسك. فقلتُ في سرّي: لا. ثم أصغيتُ إلى الأصوات الأخرى، الأصوات الدافئة، ومشيتُ نحوها وحدها.

سمعتُ صوت طنجرةٍ تُوضع على النار. سمعتُ خطواتٍ بطيئة، وكرسيًّا يُسحب. ثم سمعتُ أنفاسًا أعرفها أكثر من أيّ صوتٍ في الدنيا. أنفاسَ أمّي، وهي تجلس في مطبخنا القديم، حيث كنتُ ألعب صغيرًا تحت الطاولة.

لم يقل أحدٌ شيئًا. وكانت الدقائق تجري كحبّات رمل.

وأخيرًا تكلّمتُ، وصوتي ينكسر:

«يا أمّي... سامحيني على ذلك الصيف. كنتُ جبانًا. كنتُ أهرب من الحزن فأرميه عليكِ. وأنا... أنا أحبّكِ».

ساد الصمت. ثم سمعتُ ضحكةً صغيرة، ضحكةً تشبه ضحكاتها حين تفضحني وأنا أكذب.

«يا ابني»، قالت. «أنا سامحتك قبل أن تركب الطائرة. كنتُ أنتظر أن تسامح أنتَ نفسك».

كدتُ أفتح عينيّ. كدتُ أصرخ. لكنّني تذكّرتُ الشرط، فعضضتُ على شفتي وبكيتُ بصمت كطفلٍ لا يريد أن يوقظ أحدًا.

ثم قالت: «وضعتُ لك شيئًا في الدرج الأيسر من الكوميدينو. لا تتأخر. الفجر قريب».

وخفتتِ الأصوات تدريجيًّا، وعاد الدفء إلى كفّي ثم انسحب. وحين سمعتُ صوت الباب يُغلق خلفي، فتحتُ عينيّ.

كنتُ واقفًا في ممرّ الطابق الثاني عشر. أمام باب شقّتي الحقيقي، والمفتاح في يدي، والفجر يتسلّل من نافذة السلّم. لا ممرّ طويلًا. لا رجل رماديّ. لا دفتر.

نزلتُ بسرعة إلى المصعد. نظرتُ إلى الأزرار: من الأرضي إلى الثاني عشر، ثم «السطح». لا شيء بينهما.

كدتُ أصدّق أنّني حلمتُ.

دخلتُ الشقّة بقلبٍ يخفق. وذهبتُ إلى غرفة أمّي، وفتحتُ الدرج الأيسر من الكوميدينو، وهو درجٌ لم أفتحه منذ سنوات.

لم أجد القارورة الفارغة. وجدتُ مكانها ظرفًا قديمًا، مكتوبًا عليه بخطّ يدها المرتعش: «لسامي، بعد أن أرحل».

فتحتُه. ورقةٌ واحدة، وتحتها مفتاحٌ صغير نحاسيّ، مفتاحٌ يشبه تمامًا مفتاح ذلك المصعد القديم.

قرأتُ الورقة، فعرفتُ لماذا ظهر الطابق الثالث عشر في تلك الليلة بالذات. وعرفتُ أنّ الرجل الرماديّ لم يكن يكذب حين قال: «الأمر بيد الباب».

كانت الورقة تقول:

«يا سامي، كلّ عمارةٍ في الدنيا فيها طابقٌ ثالث عشر، لكنّ أحدًا لا يراه إلّا إذا مات له أحدٌ ولم يقل له كلمةً أخيرة. جدّك أوصاني بهذا المفتاح وقال: سلّميه لابنك يوم تموتين. ولا تخبريه بشيء. فالطابق يعرف أصحابه. وحين تدخل، قل ما عندك، ولا تفتح عينيك، واعلم أنّني كنتُ أقف في الجهة الأخرى، أتشبّث بالباب حتى تأتي.»

وفي آخر الورقة سطرٌ صغير، كأنّها كتبته على عجل:

«وإن جاءك يومًا من يحمل جملةً لم يقلها لأحد، أعطه المفتاح».

وضعتُ المفتاح في جيبي. وفي مساء اليوم نفسه، بينما كنتُ أنزل من الطابق الثاني عشر إلى الشارع لأشتري ما يلزم للعزاء، رأيتُ

جارتي العجوز أمّ ماجد واقفةً أمام المصعد، وعيناها حمراوان، وفي يدها صورةُ ابنها الذي سافر ولم يعد.

نظرتْ إليّ وقالت بصوتٍ خافت: «يا سامي، هل رأيتَ الليلة... زرًّا جديدًا؟»

ومن بعيد كان عمّ جابر يحدّق فيّ بابتسامةٍ حزينة، ويضع إصبعه على شفتيه كأنّه يقول: عرفتُ، ولن أخبر أحدًا. وضغطتُ بيدي على المفتاح في جيبي، وابتسمتُ لأوّل مرّة منذ موت أمّي.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app